

قصة دائرة المعارف الإسلامية

للأستاذ صلاح الدين المنجد



الأنسيكلوبيديّة الفرنسيّة ، معجم شامل للمعارف الإنسانية ؛ أخرجته طائفة من علماء القرن الثامن عشر وفلاسفته وضمّنه ثمرة دراساتهم الطوال ، فبدت فيه روح العصر وعاداته ، وطرائق أهله في المساجلات والمهارات

لم ينشأ عن دائرة المعارف هذه ، بحث أدبي أو علمي ، فقد كانت نتيجة لعوامل شتى ، لا سبباً لها ، وكانت ملتقى تيارات تتعارض ونظريات تتضارب ، ويلاحظ الأستاذ (أوبرتان Aubertin) في كتابه : « روح القرن الثامن عشر » أن هذه التيارات تنحصر في الأمور التالية

١ - الانطلاق : وكان مدلوله في القرن السابع عشر استقلال الفكر ، وشنشنة ضد الدين . وكان معناه في القرن الثامن عشر تظاهراً بالدعة مع الجحود والكفران

٢ - الروح العلمي . فقد هيمنت روح العلم على فكر كبير من الناس ، فأضحوا يتعلّقون بالحادثات الواقعة ، فأبذن وراء ظهورهم ما وراء الطبيعة ، تأثّروا على السلطان . وكانوا يفتخرون بالتقدم العلمي الذي رأوه آنذاك ، ويمتقدون أن الوقت قد حان لوضع أسس جدّد ، ومناهج واضحة ، تسلكها الأجيال القادمة .

٣ - الرغبة في الاستقلال السياسي ، فقد مال الناس إلى احتقار سلطان الملكية ، والثورة عليه ، والسعي في تحطيمه ، لينتقوا سلطان الشعب

٤ - الميل إلى تقليد الأجنبي وخاصة إلى تقليد إنجلترا ؛ فقد كان الفرنسيون يرون في كل ناحية من نواحي السياسة والعلم والدين والأدب فيها مثلاً سامياً جديراً بأن يقتنى أثره ، وأن يقلد

فهذه الميول المختلفة . كانت مظاهر عالم جديد يريد أن يحيا . وكانت هذه البيئة تحس في نفسها قوة وجلداً ؛ وترى

أنها قادرة على تحطيم ما خلفه لها الآباء والأجداد ، ولا بد للناس أن يعلموا ما خلفته الأجيال الخالية ، وما بذلته من جهود في سبيل رقي الإنسانية ، ولا بد لهم أن يدركوا كيف بدأ أجدادهم وإلى أية نقطة من طريق الإنسانية الطويل قد بلغوا . فدائرة المعارف كانت وسيلة إلى ذلك

ظهرت دائرة المعارف سنة ١٧٤٥ . فقد أذن لصاحب مكتبة Le Breton آتخذ ، أن ينقل إلى الفرنسيّة دائرة معارف الموم والفن L'Encyclopedie Des Sciences et des Arts التي ألفها الإنجليزي Chambers فاستشار ، ذاك الكتبي عددا من العلماء . وكانت هذه الاستشارات لا تجدى شيئاً . فعهد عندئذ إلى « ديدرو Diderot » بهذا العمل ، وكان ذا فكر ناقد محيط . فرأى أنه يستطيع توجيه ذاك الكتبي نحو فكرة قد تكون أكثر جدوى ، وأقرب نفعاً ؛ فلماذا ينقل إلى الفرنسيّة معجم ذلك الإنجليزي ؟ أليس من الخير لبلاده أن يكتب - المعارف الإنسانية بفكر فلسفي ويقدمها للناس ؟ لا جرم أن ذلك يساعد على انتشار آرائه ، وتبين ما يذهب هو والفلاسفة إليه ، ويكون وسيلة لجمع شتات فلاسفة عصره . وزين ديدرو للكتبي فكرته قبل . وعندئذ اتصل بدالامير D'Alembert وانكفأ على وضع نهج العمل

على أن نهج العمل واضح لا يحتاج إلى جهد وتفكير ، إنما الذي يدعو إلى التفكير هو الحصول على المال . فالعجم سيكون كبيراً ، وهو يحتاج إلى نفقات قد تنقل عائق الناشر . وعمدوا إلى اكتتاب بالاشتراك . وساعد على ذلك محافل الماسونيين في العالم كله ، واهتمت السلطات العامة بهذا الأمر . وتدققت الأموال على الناشر وصاحبيه . وابتدأوا يعملون

وفي سنة ١٧٥٠ أخرج ديدرو المجلد الأول ، وفيه التسع الذي سيكون المعجم عليه ، وتبيان ماسيتضمنه ويحويه . ومقاله لدالامير سماها : Discours Prélinaire

ولم ينكد يظهر المجلد الأول حتى تهافت الناس على شرائه ؛ ونال رواجاً كبيراً ، وأبدي كثير من الكتاب والعلماء وغبتهم في مساعدة ديدرو ودالامير

وظهر المجلد الثاني ؛ وفيه طعن ديدرو على القديم طمناً موجماً ، وثار الناس على مقالة كتبها الأب دُبراد محرر دائرة المعارف في الإلهيات . وهب رجال الدين يطمنون على هذا المعجم الذي يسوق إلى الإلحاد ويدفع إلى الكفر ، واضطربت السلطة ، واضطرت إلى مصادرة الجزأين . وكاد ديدرو أن يُسجن في الباستيل ، ولكن الناشر ما زال يسمى حتى أذن له مرة ثانية بإخراجها

وما كادت سنة ١٧٥٧ تطلع على الناس حتى حدث ما لم يكن بالحسبان . فقد أثرت الأحداث السياسية في فرنسا فكانت مؤامرة داميان Damians ، الذي طعن لويس الخامس عشر يطمئنه موسى ، وكان فشل روسباخ Rosbach مما سبب يقظة الشعور الوطني والأخلاق . ودعا إلى شن هجوم شديد على أولئك الفلاسفة المخربين الهدامين . ومما ساعد على ذلك مقالة عن « جنيف » كتبها دالامبير ، وكتاب « الفكر » Esprit الذي كتبه « هيلفيتيوس » Hélivétius فازداد الطعن على دُرة المعارف ورجالها ، حتى اضطر الملك إلى إيقافها ، ولكن الناشر استطاع بعون من مدام دهبمبادور حظية الملك أن يصدرها . فصدرت وحمها رجال الشرطة . وظلت تصدر حتى عام ١٧٧٢ إذ انقضى من ديدرو ، دالامبير وروسو ، وبقي وحده .

كانت دائرة المعارف كما ذكرت معجاً رتب على الحروف الهجائية ، وكان يبحث في الرياضيات والطبيعات والإلهيات . وكان مراسلها يذكرون ما وصلت إليه الإنسانية في كل علم أو فن . ويلاحظ دو كرو Ducros في كتابه « رجال دائرة المعارف » Les Encyclopedistes أن ديدرو تنبأ بمستقبل الفنون الميكانيكية ، فكتب مقالات كثيرة عن كل صناعة وبين خططها وصورها

ولكن على رغم ذلك فإن دائرة المعارف ظلت خليطاً من أمور غامضة قارة ومضطربة أخرى . لا جرم أنه كان فيها الجيد ، ولكن كان إلى جانبه الرذيل الرديء . وسر ذلك أن مباحثها كتبت بسرعة دون تأمل أو روية

على أن الذي يدهشني حقاً فيها تلك الروح المهيمنة عليها في كل صفحة من صفحاتها ، بل في كل سطر من سطورها . فلقد استطاع ديدرو ، بل وفق إلى انتقاء حراسليته من الفلاسفة الذين كان بينهم وبينه نسب في الفكر والمذهب . فإذا تصفحت دائرة المعارف بدالك هذا الفكر الفلسفي الذي لا يؤمن بكل أمر خفي ، ويسخر من كل أمر مطلق أو خارق ، ولا يمتدح بما وراء الطبيعة ، ويدعو إلى حرية الفكر والكلام والعمل

وما كانوا يصرحون بذلك تصريحاً تاماً ، ولكنهم كانوا يدسون السم في الدبم ، ويحشون مقالاتهم أفكاراً تسوق إلى ما يريدون . وقد كان من أشد ما يدعون إليه أن يحاربوا المذاهب والآراء التقليدية الموروثة ، وأن يسخروا منها فيصيبها التهديم

ومهما كان من أمرها ، فلقد كانت وسيلة لاجتماع رجال كبار . فقد كتب فيها : مونتسكيو وروسو وفولتير ، وكتب ديدرو ودالامبير ودُجو كور ودينتون Daubenton ومارمونتيل وغيرهم . . .

ويلاحظ روستان في كتابه (الفلاسفة والمهيمنة الاجتماعية في القرن الثامن عشر)

Rotstan, Les philosophes et la Société au XVIII. Siede أن مراسلي دائرة المعارف كانوا أشد حماسة من القاعين عابها . ترى ذلك عندما تقرأ مقالات كوندياك تليد لوك ، وهافيتيوس الذي دعا إلى المادية أجراً دعو ، وغيرها

وما زالت دائرة المعارف تنستر ، حتى ظهر جلياً ما تدعو إليه . وعندئذ تركها روسو ، وراح يطمئن عليها وينعتها بأنها آلة تهديم ، ويمتدح لنفسه بأنها كتب فيها عن الموسيقى ، وقد خفي عليه ما يريدون

ولكن طعن روسو ، ومن قبله طعن رجال الدين لم يفيدا شيئاً ، فقد انتشرت انتشاراً سريعاً ، فقرأها البرجوازيون المثقفون ، وقرأها بعض الحكمة ، وأعجب بها المحامون . ولئن انفض عنها رجالها ، ثم توقفت ، فلقد غرست في العقول الشك ، وسأقت الناس إلى حدث اجتماعي عظيم هو الثورة الفرنسية .

صومح الدييه النهيم

(هشني)